المؤتمر الدولي الثاني عشر للوحدة الإسلامية

كلمة الأستاذ طه جابر العلواني الاستاذ الدكتور طه جابر العلواني رئيس مؤسسة الفكر الإسلامي في أميركا بسم ا الر حمن الرحيم 1- شكر وتقدير وثناء للجمهورية الإسلامية الإيرانية والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية والدعاء أن يبارك سبحانه هذه الجهود. 2- لتناول موضوع الوحدة الإسلامية و«التقريب بين المذاهب الإسلامية» مداخل عديدة لعل أهمها وأكثرها دقة وفاعليّة بالنسبة للمنشغلين بالقضايا المعرفيّة والفكريّة ما أود أن نصطلح عليه «بالمدخل المعرفيّ» إذ أن هذا المدخل يتتبع الظاهرة المذهبية من جذورها، ومقومات نشوئها ليلاحظ ويرصد انعكاساتها الايجابيّة والسلبيّة والظواهر التي تتحول في غالب الأحيان إلى ظواهر مصغرة تحيط بالظاهرة الأم وتدور حولها. 3- أمّا نشوء المذاهب في داخل الأمّة الواحدة أو الكيان الاجتماعيّ الموحد فهو امر فطريّ وطبيعيّ ينسجم تماماً وسنّة اللّه تبارك وتعالى في الخلق الذي خلق كل شيء وفقاً لنظام زوجي لينفرد وحده تبارك وتعالى «بالوحدانيّة». (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)([1]). (ومن كل شيء جعلنا زوجين)وذلك ليحدث التفاعل والجدل المؤدي إلى استمرار الحياة والكون واستمرار الأنواع وتطورها. والمجال الفكري والفقه منه - وكذلك مجالات المعرفة أكثر التصاقاً بهذه السنّة الإلهية من المجال الطبيعي. 6- لقد عرف تراثنا الأصوليّ مسألة هامّة هي مسألة «الخطأ والصواب» عند تعدّد اجتهادات المجتهدين وتوزع علماء الأمة فيها على فريقين: «فريق المخطئة» وهم الذين ذهبوا إلى أن المصيب من المجتهدين واحد فقط، وهو غير متعيّن والآخرون مخطئون ولذلك للمصيب أجران وللمجتهدين المخطئين أجر واحد. وهذا المذهب قام على القول بوحدة الحقيقة وبوحدة الصواب (فماذا بعد الحق إلاّ الضلال). و«الفريق الثاني» فريق المصوّبة، وهم الذين قرّروا أن كل مجتهد مصيب مادام قد مارس اجتهاداً معتبراً بشروطه وبأدواته وكان أهلاً له، وبما أن الحقيقة أمر مطلق فإنّه لا المجتهد نفسه، ولا مجتهد آخر يستطيع أن يحكم بأنه قد أصاب الحقيقة المطلقة أو أحاط بها أو امتلكها، ولكن حسبه أن يكون قد اجتهد، ولذلك كان المدار على «غلبة الظن» وشاع بين الفقهاء القول المشهور: «مذهبى صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب». كما ذاع فيهم ذلك الأدب العالي حيث يختمون كل مايقولونه بالعبارة الذهبية ذات القيمة المعرفية العليا: «واللّه أعلم» وعلى هذا يمكن أن يقبل كل مجتهد ومن يتبنّون اجتهاده سائر الآخرين ويحترم كل منهم الآخر. بل إنّ هذا الموقف كثيراً مايوجد تطلعات معرفية للحوار بين المدارس المختلفة لمعرفة المدارك المختلفة ومسالك

النظر والمناهج. 7- كما عرف تُراثنا الحديثي والكلاسي حديثاً عرف بحديث «الفرقة الناجية» ومع أن في الحديث مقالاً في إسناده ومتنه يخرجه من الصحة بيد أن الكاتبين من الفرق والمجادلين من علمائها ظلوا يتداولونه ويروجون له حتى طغت شهرته على مشكلاته وما فيه من مقال. وهذا الحديث استدرج كثيراً من الفرق إلى أن تضفي على نفسها صفة «الفرقة الناجية» ورمى كل ماعداها من فرق المسلمين بأنّها فرق هالكه وآيلة إلى النار، وفتح ذلك الباب واسعاً أمام تكفير المخالفين أو رميهم بالفسق والبدعة على الأهل. ولذلك فإننا في حاجة ماسّةَ إلى مراجعة ذلك التراث كله، والكشف عن سائر مافيه من عوامل التفريق والصراع وتجاوزها. 8- إنّ العالم بعد ثوراته المتتالية، وآخرها «الثورة الاتصاليّةَ» بدأ يتقارب بقيادة الغرب اللبرالي، ويحتوي كثيراً من خصوصيات الأمم ويستوعبها ليتجاوزها، أو يجعلها هامشيّةَ عند أهلها. وقد جعل عماد عالميته المنتظرة الاقتصاد والشركات العملاقة وسياسات السوق، وقد حقق تغييرات هامة في مختلف انحاء العالم مستخدماً هذه الوسائل ولاتزال رياح التغيير التي أحدثها تجتاح العالم وتغزوه، وتحقق انجازات تضاف إلى رصيد تيار العولمة هذا. والاسلام قد تحوّل إلى جدار يحول بينه وبين اختراق واستلاب خصوصيات المسلمين الباقية لديهم والتي تشكل كنّاً لبقايا الهوية القادرة على إنبات جذورها من جديد والبناء عليها. والاسلام مؤهل بخصائصه، ومزايا شريعته ليكون شريكاً في صناعة مستقبل الإنسانية بشكل فاعلاً، ولابد من المسارعة لتغيير نظرة العالم إليه، وبدلا من اتخاذه هدفاً لحملات النظام العالميّ القائم لابد من إطلاع العالم كله على مزاياه وعلى مايمكن أن يقدمه لتطهير العالم من عوامل الصراع، وتهيئة الناس للدخول في السلم كافة، وليتحقق ذلك لابد من إعادة بناء «الامّةَ المسلمة» من جديد، وإخراجها من دائرة مفهوم كامن في ضمائر المسلمين إلى واقع حيّ يعيشونه. فكيف يتحقق ذلك؟ 9- إنّ مفهوم «الأمّة» في لغة الإسلام «العربيّةَ» تعدّدت معانيه واتسعت بشكل لافت للنظر، لكنها ترجع في جملتها إلى «القصد والتوجه والغاية والهدف والفكرة» وكل هذه موجهة لتؤم ولتقصد وتبغي قيماً تؤدي إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإشاعة جوانب الخير. ولذلك فالأمة تنطلق من تصور ورؤية وعقيدة وشريعة لتشكل نظاماً للحياة يقوم يمثل ديناً. ومفهوم «الأمة» ينعكس بطبيعته الإسلامية القاصرة ليحتوي مفاهيم «القوم والوطن والدولة والشعب» بحيث تفهم كلها في إطاره القيمي فلا تخرج عنه ولا تتعارض معه، بل تعضده وتسانده حتى يتحقق مفهوم «الأمة القطب»، ومع أن تلك المفاهيم في أصل بنائها اللغوي ذات طبيعة مكانية وزمانية وعرقية ولغوية، لكن مفهوم «الامّة» من خلال نظامه القيمي تجعل عناصر الزمان والمكان والجنس واللغة تابعة لذلك النظام القيميّ القائم على القصد والوسط والغاية والدين والعقيدة والحق والخير. وهذا بدوره يشكل منطلقاً لإعادة بناء تلك المفاهيم وتنقيتها ووضعها في

سياق يكرس ويؤكد المفهوم الأكبر «الأمّة القطب»، فمفهوم الجنس والعرق والنسب تهيمن عليه قيمة «التوحيد» ومفهوم «العقيدة» لتجعل منها وسائل تعارف وأدوات تآلف تدعم رابطة المعتقد الواحد الذي يشكل حجر الزاوية في بناء مفهوم «الأمة». وعلاقات «الوطن والأرض» تحولها قيمة «التوحيد ومفهوم العقيدة» إلى المقصود الأول الذي يغرس فيه جذر الأمّة إذا لم يكن له وجود متحقق في ارض أو مكان آخر «لتنذر ام القرى ومن حولها». أما إذا كان هناك وجود سابق في ارض أخرى فيأتي مفهوم «الهجرة» إلى أرض اللّه الواسعة، إذ الأرض أرض اللّه. والناس عياله، وذلك للبحث عن مجال حيوى أنسب لغرس جذور الأمّة فيه. أما اللغة فتحولها العقيدة إلى وعاء لنموذجها وفكرها تقدم لساناً يعمل على توضيح الغاية العقيدية وبيان القيم. خلاصة القول: أن هذا الذي نجتمع حوله «وحدة الأمّة» وفي ذكرى ميلاد باني الأمة القطب ومؤسسها صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. يقوم على مبادئ ومقدمات لابد من تحققها. وأهمها: أولاً: وجود «مجموعة بشريّة» متجانسة تربط بينها العقيدة الواحدة، والإيمان الراسخ المشترك بكل عناصره وفي مقدمتها «القيم الحاكمة العليا» وهي «التوحيد، التزكية، العمران». وكذلك الأهداف المشتركة. ثانياً: تمتلك هذه المجموعة البشريّة إدراكاً مشتركاً واحداً حول المبادئ الأساسية لا تختلف حوله. في كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة والسلوك الفردي والجماعي. ثالثاً: تربط جميع عناصر تلك الجماعة علاقة الوحدة والاتحاد أو التآلف والتضامن المطلق في أعلى حدوده. رابعاً: أن تدرك جميع عناصر تلك الأمّة - الجماعة. الوظائف العمرانيّة والحضاريّة المناطة بها، وأن تتقبل طواعية الجهاد في سبيل تحقيق هذه الوظائف بسائر مستوياته بهذه الدعائم الأساسية وعليها تقوم «الأمّة القطب» التي تستطيع أن تحقق عالمية الهدى ودين الحق في ظل حاكمية الكتاب. وشريعة التخفيف والرحمة القائمة على القيم الحاكمة والمقاصد الكلية. والنبوة الخاتمة التي القت على الأمة الوسط القطب عبء ما كانت تضطلع به من تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، والتزكية والعمران. واللّه الموفق.

---

[1]- سورة يس .